علاقة اللغة بالفكر وأثرها في فهم القرآن الكريم

بقلم: د. محمّد الربيعي (*)

ملخص البحث

يُشكّل البحث في علاقة اللغة بالفكر - من زاوية ما- أحد أهمّ مسائل علم اللغة الحديث، كما يُشكّل الفهم - من زاوية أخرى- الركن الأساس لعلم الهرمنوطيقا، ويتناول هذا المقال مسألة علاقة اللغة بالفكر، وكيفية انتقال الحقائق العينية إلى الذهن، وتشكيل الأفكار والمعاني الذهنية، وكيفية نقلها إلى الآخرين على شكل ألفاظٍ، ثمّ طريقة الرجوع من الألفاظ الصوتية إلى المعاني والأفكار عبر عملية الفهم والتفسير، مع الإشارة إلى أهمّ مسارات البحث في اللغة ووظائفها، والفكر وحقيقته، وعملية فهم النصّ القرآني عبر دراسة خصائصه ومعايير فهمه.

الكلمات المفتاحية: (اللغة، الفكر، المعنى، الدلالة، الهرمنيوطيقا، الفهم).

(*) دكتوراه في التفسير المقارن، وباحث في الدراسات الفلسفية والعرفانية.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمّدٍ وآله الطاهرين واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

مقدمة

ليس للإنسان وسيلةٌ غير اللغة يعبّر بها عن أفكاره ويحكي ما يدور بخلده؛ فإنَّ من أخصّ ما يتميّز به الإنسان عن غيره من الحيوانات قدرته على النطق وإظهار ما في الضمير وهو من أشمخ مظاهر إدراك الكليّات؛ ولهذا سمّيت النفس الإنسانيّة «ناطقةً»، ومن لطيف الأمور أنَّ المنطق كعلمٍ مُشتقّ اسمه من النطق الداخلي، وهو القوّة التي تُرسم فيها المعاني، وعلم المنطق يهذّبُها[١].

كما يُعدّ التواصل بين بني البشر من أهم عناصر الحياة الاجتماعية لديهم، وحيث أنَّ الإنسان يعجز عن إحضار أعيان الأشياء للمخاطب بشكل مباشر أثناء عملية إخباره بها في ذهنه أو عن الأشياء الخارجية، فلا بدّ من أن يختار لتحقيق هذا الغرض أنسب وأسهل وسائل التفاهم، ألا وهي استخدام العلامات والإشارات اللغوية (أي الألفاظ)[٢].

وعلى هذا فإنَّ المرء ليس له إدراك فكرِ المتحدّث وما يريده من ألفاظه إلَّا بالانتقال من تلك الألفاظ إلى معانيها.

ويكشف لنا كلّ هذا عن مدى أهمّية اللغة في التواصل والتعبير

والارتباط بين بني البشر، بل يمكن القول: إنَّ الإنسان لا يمكنه أن يرتبط بغيره إلَّا من خلال اللغة؛ فهي الأداة الوحيدة (مع قطع النظر عن الاستثناءات بالنسبة للصمّ والبكم) لنقل الأفكار والمفاهيم إلى الآخرين، بل الألفاظ هي الطريق إلى تحصيل المعاني[٣]، والكلمات المكتوبة تحكي تلك الألفاظ.

وتبرز في هذا الانتقال عدّة تساؤلاتٍ مهمّةٍ هي: كيفية ذلك الانتقال وملاكاته وقوانينه وقواعده؛ إذ المسألة ليست جزافيةً اعتباطيةً وإلَّا لكان كلّ لفظ دالًّا على كل معنىً، ولاختلّ نظام التفاهم والتفهيم.

ونتيجة لذلك - وللعلاقة بين اللفظ والمعنى- فإنَّ أي خللٍ يحدث في اللغة أو في طريقة التعبير عن الفكر فإنَّ الفكرة الحقيقية سوف لن تتجلّى وتظهر على حقيقتها؛ فكثيراً ما نرى أناساً يتكلّمون مع بعض ويتحاورون فيما بينهم إلَّا أنَّهم لا يفهم بعضهم بعضاً، وكم منهم يتفقون في النهاية وما يكون خلافهم - في بادئ الأمر- إلَّا من باب سوء الفهم وقصور الألفاظ على أداء مراداتهم وحكايتها.

وكثيراً ما نلاحظ أنَّ أحد العلماء يُشكْل على غيره، ونراه في النهاية يوجّه له بأنَّ ما ذهب إليه هو رأي ذلك الغير نفسه والاختلاف لفظيٌّ فقط[٤].

وكثيراً ما نرى أنَّ هناك حقائق تغيب أو تُغيّب خلف ستار العبارات القاصرة أو حتّى الخاطئة أحياناً.

وما ذلك إلَّا من عدم وجود وصلةٍ ما أو طريقةٍ سهلةٍ معيّنةٍ يمكن للبشر أن يتواصلوا من خلالها، فليس هناك من سلكٍ خارقٍ للعادة يمكن ربطه بين ذهني المتكلّم والمخاطب كي تنتقل الأفكار بينهما كما هي، ولو كان هذا

موجوداً لبقيت المشكلة قائمةً في كيفية ارتباطنا بالواقع الخارجي. وكلّ ما نملك - نحن البشر العاديّين- هو اللغة والألفاظ نستعين بها على نقل أفكارنا للآخرين، وإنَّ أي خللٍ أو تساهلٍ وتسامحٍ في اختيار الألفاظ الحاكية للفكرة سينجرّ على الفكرة نفسها وتشويهها وتغيير معناها.

ومن هنا صار البحث في العلاقة بين اللغة المسموعة والفكرة الكامنة في آفاق النفس البشرية من أشدّ مباحث علم اللغة تعقيداً وأكثرها دقّةً في آنٍ واحدٍ، ويتعقّد البحث عند تداخله مع علم الهرمنيوطيقا الباحث في آليات الفهم وقواعده، ويزيده تعقيداً ارتباطه بتفسير القرآن وفهم الكلام الإلهيّ.

علاقة اللفظ بالمعنى

لمّا كانت اللغة هي الوسيلة التي يعبّر بها الإنسان عن أفكاره والمعاني الكامنة في نفسه، كان من الطبيعي أن تتحقّق بين اللغة والفكر علاقةٌ وطيدةٌ إلى حدّ سريان أحوال أحدهما إلى الآخر.

إنَّ للألفاظ علاقةً وثيقةً ومحكمةً بالمعنى الذي تدلّ عليه حتى قيل: (إن الفكر يصنع اللغة في نفس الوقت الذي يُصنع فيه من طرف اللغة)[٥]، واشتهر أيضاً القول: «إنَّنا لا نفكّر إلا داخل الكلمات»[٦].

وبسبب ذلك الارتباط الوثيق والشديد بين اللفظ والمعنى يتبادر المعنى إلى الذهن بمجرّد سماع اللفظ، كما ينقدح اللفظ في الذهن بمجرّد رؤية المعنى أو التفكير به؛ ولذا سرى قُبح المعاني وحُسنها منها إلى الألفاظ فاتصفت بعض الألفاظ بالقُبح وبعضها بالحُسن جرّاء ذلك الارتباط[٧].

ونتيجةً لذلك الارتباط بين اللفظ والمعنى تكوّنت العلقة بين اللغة والفكر؛ إذ الفكر هو الوعاء الذي يحوي التصوّر والتخيّل والذاكرة، وهذه

أمور لا تنشط إلا من خلال استعمال المفاهيم والتصوّرات في عملية الفكر، وتلك المفاهيم والتصوّرات لا تتجرّد عن اللغة في حال من الأحوال للعلاقة المتقدّمة بينها، فليس للإنسان القدرة على تصوّر المعاني من دون أن تحضر ألفاظها معها في الغالب[٨].

فالفكر إذن لا يستطيع أن يعبّر عن شيء إلَّا بواسطة اللغة، كما ربّما لم يكن ليستطيع العمل دونها قبل ذلك «فليس الفكر باطنياً ولا وجود له خارج العالم وبعيداً عن الكلمات، وما يخدعنا هنا ويجعلنا نؤمن بفكر يمكن أن يوجد في ذاته قبل التعبير عنه، هو تلك الأفكار التي تكون قد تشكّلت وعبّر عنها فيما سبق، والتي بإمكاننا أن نتذكّرها في صمت، فنتوهّم حياة باطنية. غير أن هذا الصمت في حقيقة الأمر يضج بالكلام، وهذه الحياة الباطنية لغة باطنية، وليس الفكر الخالص إلا وعياً فارغاً، وأمنية لحظية، وهكذا تتشابك المعاني الموجودة وفق قانونٍ مجهولٍ، فيشرع كائنٌ ثقافيٌّ جديدٌ في الوجود، فيتكوّن الفكر والتعبير في آنٍ واحدٍ»[٩].

فالإنسان – غالباً– لا يفكّر حين يفكّر إلَّا من خلال الألفاظ الذهنية التي يُحضر من خلالها المعاني التي يريد أن يتعامل معها حين التفكير، يقول الخواجه الطوسي: (للشيء وجودٌ في الأعيان، ووجود في الأذهان، ووجود في العبارة، ووجود في الكتابة، والكتابة تدلّ على العبارة[١٠]، وهي على المعنى الذهني ... والذهني على الخارج ... الانتقالات الذهنية قد تكون بألفاظٍ ذهنيةٍ، وذلك لرسوخ العلاقة المذكورة [أي علاقة اللفظ بالمعنى] في الأذهان؛ فلهذا السبب ربّما تأدّت الأحوال الخاصّة بالألفاظ إلى توهم أمثالها في المعاني ويتغيّر المعاني بتغيّرها...)[١١].

ويقول الفخر الرازي: (اعلم أنَّ الإنسان إذا جلس في الخلوة وتواترت الخواطر في قلبه فربّما صار بحيث كأنّه يسمع في داخل قلبه ودماغه أصواتاً خفيّةً وحروفاً خفيةً، فكأنّ متكلّماً يتكلّم معه، ومخاطباً يخاطبه، فهذا أمرٌ وجدانيٌّ يجده كلّ أحدٍ من نفسه...)(١٢).

ويقول قطب الدين الرازي: (إنَّ تعقّل المعاني قلّما ينفك عن تخيّل الألفاظ، وكأن المفكّر يناجي نفسه بألفاظ متخيّلة، ولو أراد تجريدها عنها أشكل الأمر عليه)(١٣).

فإنَّ كلّ إنسانٍ يرى حقيقةً ما أو شيئاً ماثلاً أمامه سينتقل معناه وصورته إلى الذهن، وبسبب ذلك الارتباط والاتّصال الوثيق بين اللفظ والمعنى يحضر إلى الذهن اسم ذلك الشيء ولفظه متزامناً مع حضور ذلك المعنى إلى الذهن (طبعاً هذا بالنسبة للعالِم باللغة وهو في كل لغة بحسبها).

وعلى هذا فإنَّ الذي يحضر إلى الذهن - في الحقيقة- هو معاني الحقائق الخارجية وصورها لا ألفاظها، ولكن بسبب ذلك الارتباط الشديد بين اللفظ والمعنى تأتي الألفاظ إلى الذهن بتبع المعاني أو مرافقة لها.

فكما أنَّ المرء إذا نظر إلى شيء ما كالتفاحة مثلاً فإنه سيعبّر عنها بلفظ «تفاحة»، وإذا مرّ بحال كالحُبّ مثلاً فسيعبّر عنه بلفظ «الحبّ»، ولكنه إذا رأى شيئاً أو أحسّ بشيء ليس هناك من لفظٍ يعبّر به عنه فإنّه سيتوسّل بكلّ إمكاناته وقدراته العلمية واللغوية لحياكة لفظٍ معيّنٍ للدلالة على ذلك الأمر، وإلّا فسيبقى ذلك الشيء في دائرة الإبهام والخفاء والغموض.

ويبقى لقدرة المتكلّم - الأدبية وإحاطته بالألفاظ واللغة ومعانيها وقدرته على أساليب البيان (كالمجاز والكناية والتشبيه وغيرها) والتوضيح

والتفسير- الأثر الأكبر في تقريره لما يُريد الإفصاح عنه وتجنّبه الوقوع في الخطأ حين التعبير والتقرير والتوصيف والتفسير والاستدلال.

ومن هنا يقع البعض في الخطأ والخطل أثناء التعبير عن مراداتهم فيستخدمون ألفاظاً لا تعبّر عن ماهيّة تلك المرادات بما ينسجم وحقيقتها، أو يستخدمون ألفاظاً توقع بالاشتباه والتشبيه.

ومن جهةٍ أخرى فإنَّ الألفاظ هي التي تصنع الفكر في الغالب فإذا جلس مستمعٌ عند خطيبٍ أو في قاعة الدرس مثلاً أو أخذ بقراءة كتابٍ أو غيره فإنَّه سيملأ ذهنه بالمفاهيم والتصوّرات والأفكار من خلال الكلمات التي يسمعها أو يقرؤها، ويبني فكره وذهنه على أساس تلك الألفاظ والكلمات.

ومن هنا فإنَّ أيّ خللٍ أو نقصٍ أو قصورٍ في الكلمات والألفاظ الحاكية عن المعاني المُرادة للمتكلم سينتقل ذلك إلى الذهن ويترك أثراً سلبياً ربما لا يمكن تلافيه بالنسبة للمتلقّي، وهذا الحال شاملٌ لكلّ متكلّمٍ أو كاتبٍ ومتلقٍّ.

الألفاظ حراس المعاني

ممَّا يترتّب على وجود العلقة الوثيقة والمستحكمة بين اللفظ والمعنى، وأنَّ المعنى لا ينتقل إلى ذهن المخاطب إلَّا بمعونة الألفاظ وتوسّطها، كون الألفاظ حرّاس للمعاني المعبّرة عن الفكر، فإذا أراد المتكلّم أن ينقل معنىً ما إلى ذهن ما فعليه أن يعبّر عنه بما يحكيه تمام الحكاية وينقله بكلّ أمانةٍ ووضوحٍ إلى ذهن المخاطب، وإذا كانت الألفاظ الحاكية قوّية الدلالة مستحكمة الحكاية عن مرادات المتكلّم فسينتقل حينها ذلك المعنى (إلى العالم باللغة) بكلّ وضوحٍ

وسلاسةٍ، أمّا إذا كانت الألفاظ مهلهلةً فضفاضةً مائعة الدلالة سيّالة الحكايـة فإنَّ تصوّر المعنى في ذهن المخاطـب سـيمرّ بحالـة مـن الاخـتلال والارتجـاع والتموّج الذي سيربك الصورة عنده ويجعلـه يتخـبّط في الوصـول إلى المعنـى المراد للمتكلّم.

وعليه فمن الواجب على المتكلّم - إذا أراد أن ينقل أفكاره بيّنةً واضحةً- أن يستخدم ألفاظاً رصينةً معبّرةً دقيقةً منضبطة الدلالة كي يتسنّى لتلك الأفكـار الانتقال والانتقاش في ذهن المخاطب على أتمّ وجهٍ وأبين دلالةٍ وأحسن صورةٍ، وإلّا فالفشل وسوء الفهـم حليفـه لا محالـة، ومـن هنـا ينـشأ الاشـتباه والخطـأ والتقوّل ونسبة الآراء إلى صاحب الكلام من دون أن يقول به، وكأنَّ الـسامع فهم من الكلام وفق ما أوحاه إليه وهمُه وصوّرته له مخيّلته ونسبه - على ذلـك المنوال إلى المتكلّم- من دون أن يقصده، ولـيس للمـتكلم - في هـذه الحـال- الردّ على المخاطب ومعاتبته على ذلك لأنَّه كان سبباً في مثل هـذا التقـوّل عـلى نفسه من حيث يشعر أو لا يشعر، وربَّما كـان هـذا واحـداً مـن مناشـئ علـم الهرمنيوطيقا.

مفهوم اللغة وعلم اللغة والهرمنيوطيقا

عُرّفت «اللغة» بأنَّها «أصواتٌ يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم»[١٤].

كما عُرّفت «بالمعنى الحقيقي، وظيفة التعبير اللفظي عـن الفكـر الـداخلي والخارجي ... وبالمعنى الأوسع: كلّ نظام علامـاتٍ يمكـن استعماله وسـيلة إتّصالٍ»[١٥].

وخلاصة القول: أنَّ اللغـة هـي مجموعـة إشـاراتٍ تـصلح للتعبـير عـن حـالاتٍ نفـسيةٍ شـعوريةٍ، أي عـن حـالات الإنـسان الفكريـة والعاطفيـة

والإرادية، أو أنَّها الوسيلة التي يمكن بواسطتها تحليل أي صورةٍ أو فكرةٍ ذهنيةٍ إلى أجزائها أو خصائصها، والتي بها يمكن تركيب هذه الصورة مرّةً أخرى في أذهان غيرنا وذلك بتأليف كلمات ووضعها في ترتيبٍ خاصٍّ[١٦].

وأما «علم اللغة» فهو العلم الذي يتّخذ اللغة بما هي ظاهرةٌ موضوعٌ لها، يقول العالم اللغوي فردنان دي سوسور[١٧] معرّفاً علم اللغة «موضوع علم اللغة الوحيد والصحيح هو اللغة معتبرة في ذاتها [أي بما هي هي] ومن أجل ذاتها»[١٨].

ويمكن القول: إنَّ علم اللغة هو العلم الباحث في اللغة بما هي هي كظاهرةٍ إنسانيةٍ محاولاً استكشاف حقيقتها وخصائصها وجوانبها من دون النظر إلى اختلاف اللغات واللهجات. ومن وظائفه الوقوف على حقيقة الظواهر اللغوية والعناصر التي تتألّف منها والأسس القائمة عليها. والوقوف على الوظائف التي تؤدّيها في مختلف مظاهرها وفي شتّى المجالات الإنسانية. والوقوف على أساليب تطوّرها واختلافها ومحاولة كشف القوانين التي تخضع لها[١٩].

وأمّا «الهرمنيوطيقا» فهي ـ بشكلٍ عامٍّ وبتعبيرٍ مختصرٍ ــ نظرية الفهم أو فنّ الفهم، وهو تعبيرٌ مقتبسٌ من اللغات الأجنبية كانت قد استمدّته بدورها من اليونانية[٢٠].

وقد مرّ هذا العلم بمراحل كثيرة[٢١] حتى استقرّ - تقريباً- في الفكر الغربي كنظامٍ فلسفيٍّ مستقل، وفَرَض ذاته على الساحة الفكرية في الآونة الأخيرة[٢٢].

ويرتكز علم الهرمنيوطيقا على معالجة مشكلة الفهم وكيفية الانتقال من

النصّ المراد تفسيره إلى المعنى المراد للمؤلّف، ومن أبرز ما نطالعه فيه زعمه أنَّ المعنى ليس معطىً موضوعياً صرفاً تحدّده الكلمات بانفصال عن واقع المفسِّر، وتأكيده على الهوّة القائمة في أغلب الأحيان بين المفسِّر والمفسَّر[٢٣].

ونحن إذا ما ركّزنا في المشكلة التي تسعى الهرمنيوطيقا لمعالجتها والمعطيات التي طرحتها في ذلك وجدناها تدور حول قضيةٍ واحدةٍ تتمثّل بالسؤال التالي: ما مقدار تطابق الألفاظ والكلمات مع المعنى المراد النطق به؟

وبعبارةٍ أخرى: إلى أيّ مدىً تحكي اللغة فكرَ المؤلّف؟

وبعبارة ثالثة: ما مقدار تطابق اللغة مع الفكر؟

وهذا ما يفسّر المخاض العسير الذي يتعرّض له كل من زاول الكلام ومارس الكتابة في التعبير عما يتشابك في النفس من أحاسيس، وينعقد في الخاطر من أفكار، واستحالة أن تنقل الكلمات «الملفوظة» الكلمات «الداخلية» نقلاً تاماً صافياً[٢٤].

الهرمنوطيقا وعلم اللغة

جاء اهتمام الهرمنيوطيقا بمسائل علم اللغة جرّاء تعاملها مع النصوص، واللغة هي التي تشكّل قوام النصّ، وقد طرح هذا البحث في الهرمنيوطيقا الجديدة (خصوصاً في هرمنيوطيقا غادمير) لأنَّها تعتبر اللغة عماد عملية الفهم وقوامها، لا أداةً للفهم فحسب.

وعلى هذا فإنَّ علم الهرمنيوطيقا يرتبط بعلم اللغة وفروعه وأساليبه المختلفة، وإن كان كلّ واحدٍ منها يُعدّ علماً قائماً بذاته مشتملاً على غرضٍ ومنهجٍ خاصٍّ به.

ويمكن القول: إنَّ الهرمنيوطيقا تستفيد من أبحاث علم اللغة ونتائجه.

وبكلماتٍ أخرى: إنَّ علاقة علم اللغة بالهرمنيوطيقا - خصوصاً في البحوث التي تكشف عن البعد البنيوي للغة- كعلاقة علم اللغة بعلم المنطق، أي كما أنَّ علم الهرمنيوطيقا لا مناص له من توظيف المناهج العامّة والمنطقية للتفكير، كذلك لا بدَّ له من استخدام الأنظمة المرتبطة بقانون اللغة[٢٥].

وظائف اللغة

يذكر علماء اللغة والمختصون في هذا المجال عدّة وظائف للغة أوصلها بعضهم إلى عشرين وظيفةً[٢٦]، ولكنّا نرى أنَّ هذا التعداد عبارةٌ عن تفصيلٍ لعدّة وظائف فرعيةٍ للغة، ويمكن إدراج كلّ تلك الوظائف تحت وظيفتين رئيسيّتين، فالإنسان باعتباره كائناً مُدرِكاً للحقائق في نفسه من جهةٍ، وموجوداً اجتماعيّاً مضطرٌّ للتواصل مع الآخرين من جهةٍ أخرى، فهو إذن يستخدم اللغة ويوظّفها بشكلٍ أساس في عدّة أمور يمكن جمعها جميعاً في نقطتين رئيسيّتين هما:

أوّلاً: وصف الحقائق والواقعيات: حيث يُترجم الإنسان ما يراه من حقائق كونيةٍ وواقعياتٍ عينية وينقلها إلى الآخرين واصفاً لهم إياها عن طريق اللغة.

ولا تقتصر الواقعيات على الكائن في الخارج المادّي بل تعمّه إلى الحقائق المجرّدة والغائبة عن مشاهدة الإنسان الحسّية كإدراك العلّية والمعلولية بين الأشياء، ومن هنا فلا داعي لجعل بيان الأسباب والمسببات وظيفةً لغويةً مستقلّةً كما فعل البعض[٢٧] وتبعه آخرون[٢٨].

ومن تلك الحقائق الغائبة عن مشاهدة الإنسان الحسّية التي تترجمها اللغة تصوير العواطف والأحاسيس وحكايتها للآخرين؛ إذ إنَّ بإمكان اللغة

تصوير العواطف والأحاسيس الباطنية التي يشعر بها الإنسان (كالفرح والسرور والغم والحزن، والتعجّب) ولا يمكن لغيره إدراكها ما لم تكن هناك لغةٌ تنقلها له، وهذا - أيضاً- فرعٌ من فروع حكاية اللغةُ للحقائق والواقعيات.

وقد عُدّ نقل التجارب والثقافات وتلقّيها واحدة أخرى من وظائف اللغة، إلا أنا لا نرى لفصلها عن الوظيفة الأساسية وهي الإخبار عن الواقعيات أيّ داعٍ يسوّغ ذلك إلّا الإطناب بالتفصيل.

ثانياً: بعث المخاطب وإرساله للقيام بأمرٍ ما: إنَّ الأوامر والنواهي التي تصدر من متكلّمٍ ما لمخاطب ما إنّما يُراد منها إرسال المخاطب وبعثه للقيام بفعلٍ ما، وهذا الإرسال والبعث ينطلق من إرادة كامنة في نفس المتكلّم تتّسم بدرجةٍ معيّنةٍ من الرغبة والطلب لمتعلقها يعبّر عنه المتكلم من خلال الألفاظ (الأوامر والنواهي) الموجّهة للمخاطب.

ورغم أمكان دمج هذا القسم بالقسم الأوّل عند التدقيق؛ حيث إنَّ الأوامر والنواهي اللفظية عبارة عن إخبارات التزامية عن مرادات المُتكلم ورغباته النفسية، وبالتالي فهي وصفٌ لتلك الحقائق الكامنة في ذات المتكلّم، بيد إنَّ الهدف الأساسي والعلّة الغائية التي تقف خلف هذا البعث والإرسال - في جملةٍ من الأحيان- ليس هو بيان رغبات المتكلّم النفسية بل هو دفع المخاطب للقيام بعملٍ ما من خلال أمره ونهيه، وهذا ما دعانا لجعل هذا القسم منفرداً على حِدة[٢٩].

ويمكن اختصار ما تقدّم بالقول: إنَّ وظيفة اللغة هي المنطق سواء كان داخلياً أم خارجياً.

ملاحظة: عند التأمل في الآيات القرآنية نجد وصف الحقائق، وبعث المخاطب، بالإضافة إلى المجالات القرآنية الخاصّة بلغة القرآن كالهداية والموعظة والتحذير والعبرة والبشارة ونحوها[٣٠].

اللغة والواقع

للإنسان أن يرتبط بالواقع الخارجي بمختلف أنواع الارتباط بدءً من الارتباط الحسّي وانتهاءاً بالارتباط الحضوري والمكاشفة الشهودية، وهو غير قادرٍ ـ في الغالب ـ على نقل ذلك الارتباط إلَّا من خلال اللغة والألفاظ، كما له أن ينقل كلّ ما يشاهده أو يمرّ به من حالاتٍ أو يفكّر به من معانٍ من خلال الألفاظ واللغة التي يملكها، وهي خاضعةٌ للنظام اللغوي الحاكم عليها، وعلى هذا فإذا أراد الإنسان أن يتعرّف إلى ثقافة قومٍ ما فعليه أن يدرس لغتهم ويتعلّمها؛ فإنَّ اللغة في جانب من جوانبها تعكس ثقافة أولئك القوم وطريقة تفكيرهم وبما يفكّرون وما هي المعاني الحاكمة على عقائدهم وثقافتهم، و«عندما ندرس بنية لغة في شعب ما فإننا ندرس صور وطرائق تفكيره، وعندما ندرس مفرداتها فإنّنا نكتشف نماذج مميّزاته، فإذا زعمنا بأنَّ (اللغة هي تبلور فكر الشعب) فإنَّ قولنا هذا ليس مجانباً للحقيقة»[٣١].

وممَّا يترتّب على ذلك وما يهمّنا من البحث هو أنَّ الله تعالى خاطب بني البشر من خلال اللغة العربية التي نزّلت على النبي الخاتمﷺ، وهذا يكشف لنا – وانطلاقاً مما تقدّم– أنَّ هناك ثقافةً وفكراً مخبوءاً خلف هذه اللغة أراده الله تعالى وعناه حين المخاطبة، وعلينا أن نشمّر عن ساعد الجدّ لاكتشاف تلك الثقافة والمفاهيم الفكرية التي أرادها الله سبحانه.

ولا نعني من ذلك مفاهيم العرب وثقافتهم في عصر نـزول القـرآن، لا، بل نقصد المفاهيم والثقافة التي عناها الله تعالى من تلك اللغة التي خاطب بها الخلق، والتي جاءت بلسانٍ عربي مبين، فإنَّ الله تعالى أراد لخلقه - وعن طريق القرآن- أن يتوحّدوا في ثقافةٍ واحدةٍ ويجتمعوا تحت خيمة مفـاهيمٍ منـسجمةٍ تعكس الإرادة والصبغة الإلهية المتجلّية في القرآن الكريم.

وممَّا يقع على عاتق المفسّر للقرآن الجهد في استكشاف هذه الثقافة المـرادة لله تعالى.

وعلى هذا فإنَّ الألفاظ المستعملة في القرآن تحكـي ثقافـةً إلهيـةً وتعكـس فكراً ربّانياً ورؤيةً كونيةً خاصّةً.

نعم، ربَّما شابهَ الاستخدام اللغـوي وربَّـما خالفـه أو عدّلـه في شيء مـن جوانبه؛ ولذا فإنَّ محض دراسة الاستعمال اللغوي - وإن كان مهمّاً ومفيداً- لا يعطينا صورةً كاملةً وصحيحةً عـن الاسـتعمال القـرآني لتلـك المفـردة؛ فلـزم لذلك أن نبحث عن الاسـتعمال القـرآني للكلـمات والألفـاظ القرآنيـة (وفـق منـاهج التفـسير) والانتقـال منهـا إلى المـرادات الإلهيـة التـي تـشكّل الثقافـة الإسلامية للمسلم المنشود[٣٢].

فعملية الفهم والتفسير - في الحقيقة- هي عملية إرجاع الألفاظ إلى أفكـارٍ ومعانٍ، أو لنقلْ: هي عملية الرجوع من الوجود الكتبي واللفظي إلى الوجـود الفكري والمفهومي، بل وحتى العيني في عملية الرقي والتكامل الإنساني.

مشكلة اللغة

بعد أن عرفنا علاقة الألفاظ بالمعاني وأثرها على الذهن والفكر ننفتح على مشكلةٍ كبيرةٍ نواجهها في حياتنا اليومية فضلاً عن حياتنا العلمية التي نتعامـل

من خلالها مع مجموعة من الكلمات المسموعة أو النصوص المقروءة، وهذه المشكلة تتمثّل بكيفية الانطباق والتطبيق بين اللغة المسموعة أو المقروءة والفكر الحاملة له، فقد تقدّم أنَّ اللغة والألفاظ هي التي تحكي الفكر المخبوء في الذهن إلى المخاطب. والمتكلّم لا طريق له - في الغالب- في نقل الفكر والأفكار إلَّا من خلال اللغة، وكلّ تقصيرٍ أو قصورٍ في اللغة سينعكس سلباً على أداء تلك المعاني والأفكار، مما سيسبّب خللاً في عملية الفهم.

والنقطة الجديرة بالتمعّن هنا هي إنَّ المرء إذا ما وقف أمام مشهد أو واقع ما فإن ذلك المشهد والواقع سينعكس في ذهنه على شكل مفاهيم ومعانٍ تكون هي المادّة الأولى للفكر، فإذا ما أراد أن ينقل مفاهيم ذلك المشهد والواقع ومعانيه أو ذلك الفكر ــ المتولّد عن المفاهيم الذهنية الأولى ــ إلى الآخرين فلا مناص له من استخدام اللغة والألفاظ والكلمات.

وتشتدّ المشكلة عندما نصل إلى القرآن الكريم محاولين تفسيره وفهمه ومعرفة المرادات الإلهية من آياته المباركة؛ حيث إنَّ القرآن عبارة عن كلمات لغوية تشكّل جُملاً تحمل معاني كثيرة ومتعدّدة، وليس لنا (ونحن نعيش في عصر الغيبة) إلَّا هذه اللغة والكلمات للوصول إلى المعاني التي حكاها الله تبارك وتعالى لنا من خلالها.

وتتفاقم المشكلة إذا ما استحضرنا قضية أنَّ الله تعالى إنما يريد من خلال القرآن أن يبني منظومةً فكريةً عميقةً وعملاقةً تُعطي تصوّراً متكاملاً عن الوجود بأسره وعلاقة المخلوق بالخالق، وقد ضمّن هذه الكلمات واللغة القرآنية تلك المنظومة كي يتسنّى للبشر فهمها والإيمان بها.

إذن فالطريقة التي تكلّم بها الله مع البشر (فيما عدا بعض الرسل) هي

إرسال مجموعة ألفاظ لغوية صارت فيها بعد مجموعة كلمات منقوشة على الورق، وليس للإنسان أن يطّلع على المعاني المرادة للباري تعالى إلا من خلال تلك الألفاظ القرآنية، وهذه الألفاظ مهما كانت تبقى ألفاظاً تحكي عن معانٍ مرادة لله تعالى.

والنتيجة هي: إنَّ على الإنسان أن يستكشف الفكر الذي أراد الله سبحانه من بني البشر أن يتحقّقوا به من خلال تلك اللغة القرآنية، وهذا يُرجعنا إلى موضوع العلاقة بين اللغة والفكر وعملية الفهم.

ويمكن لنا التعبير عن هذا الأمر بالعبارة التالية: إنَّ على الإنسان إذا ما أراد الوصول إلى المرادات الإلهية أن ينتقل من الألفاظ القرآنية إلى الذهن وعالم الفكر الإلهي؛ كي يتعرّف على الأفكار التي أرادها الله سبحانه ويطّلع على المنظومة العقدية والإلهية المنتشرة في الشبكة الغوية القرآنية.

ونختزل ذلك كلّه ضمن هذا السؤال الأساسي وهو: ما هي العلاقة بين اللغة والفكر وأثرها في فهم القرآن؟

القرآن بألفاظه ومعانيه كتاب إلهي

يمتاز القرآن امتيازاً جذرياً عن جميع الألفاظ الحاكية عن المعاني أو المستخدمة من قبل الإنسان في الدلالة على مدلولاتها من جهتين:

الجهة الأولى: إنَّ الخلل الذي يمكن أن يحصل في دلالة الألفاظ على مدلولاتها إنّما يأتي من خلال جهل المتكلّم إمّا بالمعنى الذي يريد التعبير عنه أو عدم وضوحه وضوحاً تامّاً لديه، أو من خلال جهله باللفظ الذي يدلّ على ذلك المعنى دلالةً تامّةً، وهذا غير واردٍ على الله سبحانه لعلمه الاحاطي بالمعاني والألفاظ الدالة عليها تمام الدلالة، وهذا يرجع لعدم تناهي العلم

الإلهي وإطلاقه.

الجهة الثانية: إنَّ القرآن كلام الله تعالى أنزله على قلب نبيه محمّدٍ صلى الله عليه وآله، وإنَّ ذلك الإنزال تمّ بألفاظه ومعانيه، أيّ إنَّ الله تعالى نزّل معاني ذلك القرآن على قلب النبي واسمعه صوت ألفاظه في سمعه الباطني.

وبعبارةٍ أخرى: إنَّ القرآن بألفاظه ومعانيه نازلٌ من الله تعالى لم يتخلّله أيّ خللٍ أو تغيّرٍ.

ويعتقد أكثر علماء الإسلام إنَّ الذي نزل على النبي صلى الله عليه وآله إنَّما كان المعاني والألفاظ جميعاً، وما كان للنبي صلى الله عليه وآله إلَّا استلام ذلك من الله تبارك وتعالى وإبلاغة للناس من دون أدنى تصرّفٍ أو تدخل في محتواه وألفاظه[٣٣].

وهذا القول هو الغالب والشائع والمشهور بين المسلمين منذ بداية نزول الوحي وإلى الآن، بل حكى بعض العلماء إجماع المسلمين عليه[٣٤].

ويستند هذا المذهب إلى أدلّة برهانية محكمة مضافاً إلى تأييد القرآن والروايات.

ومن ذلك: فإنَّ سعي النبي صلى الله عليه وآله الشديد على حفظ القرآن من كلّ تغييرٍ وتحريفٍ من خلال الاجتهاد في حفظه[٣٥]، وتوظيف مجموعة من المؤمنين لكتابة النصّ القرآني وثبْته بدقّة، وتعليم آياته بعد نزولها مباشرة للمسلمين الحاضرين، وإرسال المبلّغين لتعليم المسلمين في المناطق الأخرى، والتأكيد على قراءته المستمرة وحفظه، كلّ هذا - وغيره من الأمور- يشكّل قرائن قويةً على أنَّ القرآن بكلماته وجمله وألفاظه وتراكيبه اللفظية كما هو محتواه نازلٌ من الله تعالى.

وأمّا الآيات فكقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى

يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾[٣٦]، وما شابهها من الآيات التي تصرّح بأنَّ القرآن كلام الله، وهو ما يستلزم – على الأصل – أن يكون الكلام المنسوب لشخص هو بمعناه وألفاظه لنفس ذلك الشخص[٣٧].

كما أنَّ هناك العديد من الآيات التي تُصرّح بوحيانية ألفاظ القرآن وعربيّته وقراءته وتلاوته وترتيله، كما أنَّ هناك آيات تُشير إلى أنه قولٌ ألقاه الله إلى نبيه، وهذا كله من خصائص نظم المتن الظاهري، مضافاً إلى اتّباع النبي المحض للوحي في هذا المجال، وخصوصاً ما جاء في بعض الآيات[٣٨] من نسبة عربية القرآن إلى الله تعالى بشكلٍ مباشرٍ.

كما أنَّ هناك أكثر من (٣٠٠) آية تخاطب النبيصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بخطاب (قل) وهي دالة على أن وظيفة النبي إنما كان إبلاغ الوحي الإلهي فقط من دون أن يكون له الحقّ في التدخّل فيه.

والجدير بالذكر أنَّ بعض الآيات كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣٩]، وغيرها، كأنَّها تُجيب عن نفس هذا الرأي وأنَّ القرآن كلّه من الله تعالى، وهي تردّ على مزاعم المشركين القائلة: بأنَّ القرآن من افتراء النبيّ محمّدٍصَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ[٤٠]، كما إنَّ المعاني المنقولة لشخص وإضفاء الألفاظ عليها من الشخص الثاني لا تستلزم نسبة الكلام إلى الشخص الأول إلا بشيء من التعمّل والإطلاق المجازي[٤١].

كما إنَّ من الأدلة التي تدّل على أنَّ القرآن بمعانيه وألفاظه وحيٌ منزل من الله تعالى مسألة إعجاز القرآن وتحدّيه المشركين أن يأتوا بمثله لو كانوا يقدرون؛ فإنَّ الإعجاز اللفظي للقرآن يدلّ على أنَّ ألفاظه جاءت من قوّةٍ غيبيةٍ خارجةٍ عن قدرة البشر؛ ولذا فهم يعجزون عن أن يأتوا بمثله ولو كان

بعضهم لبعض ظهيراً.

وعلى هذا فالقرآن الكريم يختلف عن أي ألفاظ أخرى في دلالته على معانيه المرادة له؛ فلا يدخل إلى القرآن من ناحية دلالة الألفاظ على المعاني وبالتالي على الفكر المطلوب أيّ قصورٍ أو نقصٍ كما يعانيه الإنسان في البحث عن الكلمات والألفاظ المناسبة للتعبير عما يدور في نفسه من معانٍ وألفاظ.

نعم، يبقى الكلام في هل أنّ لغة القرآن واقعية، وما هي المعايير التي تكشف لنا المعنى الواقعي للقرآن؟

واقعية لغة القرآن

القرآن الكريم عبارةٌ عن مجموعة كلماتٍ متركّبةٍ مع بعضٍ مكوّنة جملاً وعباراتٍ لها دلالاتٌ وحكاياتٌ وإيحاءاتٌ خاصّةٌ بها تدلُّ على اللغة، وهي بدورها تدلّ على الفكر والمعاني المقصودة منها، ولكنّ السؤال المهم هنا هو: هل أنَّ هذه الكلمات والعبارات القرآنية كاشفةٌ عن واقعٍ معيّنٍ ومحدّدٍ وراءها تعنيه بمقاصدها ودلالاتها بقطع النظر عن أحاسيس القارئ وما يتكوّن في ذهنه أثناء القراءة؟ أم أنَّها عباراتٌ ليس لها ما بإزاء تحكيه وتدلُّ عليه وتُشير إليه كالأساطير والقصص والروايات الأدبية التخيّلية؟

وبعبارة مختصرة: هل إنَّ لغة القرآن لغة واقعية أم لا؟

ربَّما كان البحث في هذه المسألة من الأبحاث المستحدثة التي لم تعالجها الدراسات القديمة إلى أربعة عشر قرناً رغم ما له من أهمّيةٍ قصوى ومدخلية عظمى في فهم المراد الجدّي للآيات القرآنية؛ ولعلّ السبب الأساس الذي كان وراء فتح الباب أمام هذا البحث وما على شاكلته هو تقدّم الدراسات اللغوية واللسانيات وعلم الهرمنيوطيقا، والتأثّر بالأبحاث المطروحة في الثقافات

الغربيـة والفكـر اللاهـوتي المـسيحي؛ ممَّـا دعـا العلـماء والمفكّـرين لفهمهـا والاستفادة منها أو الردّ عليها منعاً للتأثير السلبي لتلك الثقافات عـلى ثقافتنـا الإسلامية، كذلك الهجوم الفكري الذي شنّه بعض المستشرقين على الإسـلام والقرآن العزيز.

وطبقاً للدلائل الكثيرة يمكن الإجابة بأنَّ لغة القرآن لغةٌ واقعيـةٌ كاشـفةٌ عن الواقع وحاكيةٌ عنه، نعم، لا ينفي ذلك وجود أساليب الاستعارة والمجـاز في كثير من آياته المباركة، كما أنَّ خطابات العقلاء - أيضاً- لا تخلو هي نفـسها من تلك الأساليب - مع بقاء غرضها الأصلي في حكايـة الحقـائق ونقلهـا إلى الآخرين- فلطالما استفاد العقلاء من الأسـاليب الأدبيـة المختلفـة، وذلـك لا يتعارض مع كونهِ نصّاً كاشفاً عن الحقائق الواقعية.

فالله سبحانه اسـتخدم - في إيـصال المعـاني التـي أراد إيـصالها للبـشر- الأسلوب نفسه الذي اتّخذه العقلاء في تخاطبهم وتحاورهم.

وممَّا لا شكّ فيه أنَّ هناك أصـلاً يعتمـد عليـه الإنـسان في فهـم مـرادات الآخرين حين التحاور والخطاب، وهـذا نفـسه يؤهلـه للاسـتفادة مـن نـصّ القرآن وفهمه وفق نفس تلك الأسس، ولا يعني ذلك إطّلاعـه عـلى الحقـائق جميعها والأبعاد كلّها.

ويمكن الاستدلال على واقعية لغة القرآن بأنَّه:

أوَّلاً: نزل لبيان هدفٍ خاصٍّ مشتملٍ على حقائق في مجال معرفة الوجود، ومعرفة الإنسان، ومعرفة الطريق، ومعرفة ما يدلّ عـلى الطريـق، بـل في كـلّ مجال له رؤيةٌ خاصّةٌ يطرحها.

ولسان بيان القرآن لهذه المطالب هو لسان الكشف عن الواقـع والحكايـة

عن المعرفة والحقائق الواقعية، ولا نستطيع أن نحمل هذا اللسان على لسان غير الواقع مثل القصص والأساطير وأمثالها، وإلا فكيف يكون ما يطرحه علماء النفس أو الفلاسفة – من وجود الإنسان ومعرفته– أموراً حاكيةً عن الواقع، ولا تكون حاكيةً عن الواقع إذا طرحها القرآن الكريم؟! فهل من الصحيح أن نعدّ ما يقوله علم النفس – مثلاً– أنَّ «الإيمان بالله يبعث السلامة بالروح والنفس» دالًّا على معنى واقعيٍّ أو تكون له واقعيةٌ، وعندما يقول القرآن: ﴿...أَلاَ بِذِكْرِ اللّه تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٤٢] لا يكون حاكياً عن الواقع؟!

ثانياً: كما أنَّ القرآن كتاب استخدم نفس أصول التحاور العقلائي، ومن الأصول الحاكمة في المحاورات العقلائية إرادة المعنى الواقعي للجملة الخبرية، فإن قال صديقٌ لصديقه: «إنَّ أخاك في المستشفى» فإنَّ الفهم الأولي من هذه الجملة هو أن يكون لها واقعٌ، لا أنَّها في مقام بيان الشعر أو الرومانسية مثلاً، والأصل المتقدّم يصدق في فهمنا لكلمات الله سبحانه أيضاً؛ لأنَّه:

١. حكيمٌ ولا يخالف مقتضى الحكمة.

٢. قد أكّد الشارع المقدّس على تطابق سيرته مع السيرة العقلانية.

٣. إنَّ القرآن قد صرّح بنفي هذه الأوصاف عن كتابه، وأكّد على أنَّ مطالبه حاكيةٌ عن الواقع.

ثالثاً: ومن جملة ما يمكن الاستدلال به على واقعية لغة القرآن الإتيان بالمعجزات على يدّ النبيصلى الله عليه وآله والأئمةعليهم السلام، فإنَّ فلسفة المعجزة هي تنبيه الناس وتوجيههم إلى أنَّ هناك واقعاً من وراء مدّعيات النبيّ ورفع الشكّ عنها، فالمعجزات غالباً ما تكون في موردٍ ادّعى النبيّ فيه حقيقة ما قد أنكرها

المستمعون ولم يحملوها محمل الجدّ ويشكّكون في حقانيتها؛ ولهذا فإنَّ الله يظهر لهم شيءٌ غير طبيعيٍّ أو ما وراء الطبيعة لإثبات حقّانية كلامه.

رابعاً: عند الرجوع إلى أحاديث النبي صلى الله عليه وآله - الذي تلقّى القرآن من الله تعالى- نلاحظ أنَّه كان ينظر إلى تعاليم القرآن أنَّها تعاليم واقعيةٌ، فإنَّ الأحاديث التي تبيّن لنا التعاليم والأحكام الفردية والاجتماعية، والإسلامية، وأوصاف الله، ويوم القيامة، وطرق الهداية، والنجاة، كلّها مملوءةٌ من الشواهد في هذا المجال، وحتّى في بعض موارد الأدعية والمناجاة، والزيارات وردت أحاديث يمكن أن تكون شاهداً على هذا المدّعى، فمثلاً نقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي: «بل لثقتي بكرمك وسكوني إلى صدق وعدك، اللّهم أنت القائل وقولك حقٌّ، ووعدك صدق»[٤٣]، وكذا في زيارة آل ياسين - أيضاً- فقد جعل المعصوم عليه السلام الحقّ والواقع من جملة الاعتقادات الدينية التي أكّد عليها في قوله: «وأن الموت حقّ، وأن الحشر حقّ، والبعث حقّ...» [٤٤]، وهناك الكثير من هذه النصوص الدينية التي تثبت هذا الأمر.

خامساً: تصريح القرآن في كثير من آياته[٤٥]، بل قلّما تخلو سورةٌ من سور القرآن الكريم من التأكيد على أنَّ الذي جاء به الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من الآيات والذكر الحكيم والقصص المتضمنة فيه إنَّما هو الحقّ[٤٦] من الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ...**﴾[٤٧]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[٤٨].

كذلك موارد متعدّدةٌ من الآيات صرّح بكلمة «الصدق» ومشتقاتها أثناء التعرّض لكلام الله أو الرسول، كما في قوله تعالى: ﴿**بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ**

﴿الْمُرْسَلِينَ﴾[٤٩]، فقد أكّد الله في القرآن على صدق قوله وصدق قول نبيه صلى الله عليه وآله، ولازم الصدق انطباقه على الواقع.

بل إنَّ بعض الآيات جاءت صريحةً في ردّ ادّعاء الكفّار بأنَّ القرآن ليس فيه تعاليم إلهيةٌ، بل كلّه أساطير، كقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾[٥٠]، وغيرها من الآيات الرادّة على هذا التخرّص.

من مجموع الشواهد - سواء المستفادة من خارج النص أو داخله- يمكن أن يُستنتج أنَّ البناء في إرسال الآيات القرآنية كان لأجل بيان الواقع بجملٍ تحكي ذلك، فيكون الأصل الأوليّ في فهم القرآن هو أنَّ له معرفةً واقعيةً ما لم تدلّ قرينة على خلافه[٥١].

خصائص النصّ القرآني

يختلف القرآن الكريم عن أيّ نصٍّ آخر من النصوص المقدّسة[٥٢] فضلاً عن النصوص البشرية؛ ذلك لأنَّه كتابٌ نازلٌ من الله سبحانه بألفاظه ومعانيه، وحيث أنَّ مُنزله يتّصف بصفات الكمال بأعلى درجاتها - فهو العالم على الإطلاق والقادر على الإطلاق والمحيط على الإطلاق- فإذا أراد أن يعبّر عن حقيقة ما فإنه يُعبّر عنها بأدق عبارة على أتمّ وجه.

وقد مرّت الإشارة إلى أن دلالة اللفظ على المعنى وانطباق المعنى على اللفظ الدال عليه تتوقّف أوّلا على العلم الكامل بالمعنى المراد تأديته، فإنَّ من لا علم له بالمعنى والحقيقة التي يُريد أدائها لا يمكنه أن يعبّر عنها وينقلها للآخرين.

كما تتوقّف تلك الدلالة على العلم باللفظ الدقيق والمناسب لأداء ذلك المعنى فإنَّ الألفاظ تختلف فيما بينها من حيث جمالية الصوت وعذوبة اللحن وانسجام الحروف وهذا ينعكس على المعنى المراد التعبير عنه، فإذا كانت المعاني معانيَ جميلةً ناسبها الألفاظ الجميلة وإذا كانت المعاني قبيحةً قاسيةً ناسبها ما يناسبها من الألفاظ.

وحيث أنَّ الله تعالى متّصفٌ بالعلم المطلق والإحاطة التامّة بالمعاني والألفاظ فقد اختصّ بالقدرة المطلقة على أداء تلك المعاني بأحسن ما يناسبها من ألفاظ من دون تخلّل خللٍ أو حصول إخفاقٍ.

وقد تجلّت هذه القدرة غير المتناهية في القرآن الكريم ودلالة ألفاظه على معانيه.

ويُضاف إلى ما تقدّم تفرّد القرآن بمجموعة خصائص اختصّ بها دون غيره من الكتب، وقد أعطت تلك الخصائصُ القرآنَ جملةً من الامتيازات على غيره من النصوص المقروءة، ممَّا أوجب ذلك على الذي يريد التعامل مع القرآن أو محاولة فهمه أن يخضع لمعطيات تلك الامتيازات، ومن جملة تلك الخصائص:

أوّلاً: كونه كتاباً وحيانيّاً.

ثانياً: إنَّه كتابٌ منزلٌ من الله بألفاظه ومعانيه.

ثالثاً: إنَّه كتابٌ مصونٌ من التحريف.

رابعاً: إنَّه يخضع لنظامٍ خاصٍّ في الفهم مضافاً إلى نظام اللغة والعرف العام.

ولهذا فإنَّ القرآن في حدّ ذاته لا يخضع لمعايير الفهم البشري، أيّ أنَّ

النصّ القرآني ليس فيه أي قصورٍ أو تقصيرٍ في أداء المعاني المرادة لله؛ إذ إنَّه كلام الله النازل منه أنزله على قلب النبيﷺ بألفاظه ومعانيه؛ وعليه فليس للتفاوت بين اللفظ والمعنى، أو التشكيك بأنَّ هذه الألفاظ ربَّما لا تدلّ على تمام مراد المتكلّم، أو ربَّما يكون المتكلّم قصد شيئاً لم يُشر له في كلامه، أو ربَّما كانت هذه الألفاظ غير دالةٍ تمام الدلالة على مراد المتكلّم - كما هو في عرفنا البشري- أي طريق إلى هذا النصّ الإلهي الخالد.

نعم، تبقى مشكلة الفهم وكيفية الانتقال من هذه الألفاظ القرآنية إلى مراد الله تعالى قائمةً بيننا وبين النصّ القرآني، وحيث أنَّ القرآن كلامٌ عربيٌّ نازلٌ على قومٍ تمرّسوا في صنعة الكلام والبلاغة والفصاحة، وهو إلى ذلك خطابٌ نازلٌ وفق قوانين اللغة وطريقة التفاهم العقلائي، كانت هناك مجموعة قواعد ومعايير يُفهم بها هذا الكلام، وهذا ما سنعالجه تحت العنوان التالي.

منطق فهم القرآن ومعاييره

يُعدّ اختصاص كلّ علمٍ بمنطقٍ خاصٍّ به يُستكشف من خلاله معطيات ذلك العلم من الأمور المسلّمة في العلوم، فعلم المنطق منطقٌ لعملية التفكير السليم، وعلم أصول الفقه منطق علم الفقه، وعلم الرياضيات منطق علم الفيزياء، وهكذا. فهل لعلم التفسير(أي عملية تفسير القرآن) منطقٌ يستجلي قواعد التفسير الصحيح والسليم أم لا؟

وبعبارةٍ أخرى: هل لعلم التفسير أو عملية فهم النصّ القرآني وأيضاحه قواعد ومعايير خاصّةٌ به يوجب عدم مراعاتها الانحراف عن جادّة الصواب في فهم مراد الماتن، أم أنَّ عملية التفسير عبارةٌ عن مهمّةٍ ساذجةٍ خاليةٍ من أيّ قواعد وضوابط ممّا يفتح المجال أمام المفسّر لأن يحمّل النصّ كلّ ما يريد

ويشتهي ويهوى، وبالتالي سينفتح الباب على مصراعيه للتأويلات والتخرّصات والتقوّلات على صاحب المتن؟

لا ريب في أنَّ جواب ما تقدّم من سؤالٍ هو: إنَّ لتفسير أيّ نصٍّ من النصوص مجموعةً من القواعد والضوابط التي تحكم عملية التفسير وترشدها إلى طرق الفهم الصحيح. ولعملية تفسير القرآن مجموعة من القواعد الصارمة التي ما إن أغفلها المفسّر فإنَّه ستزلّ قدمه عن الفهم الصحيح لآيات القرآن لا محالة.

ويمكن الإشارة لتلك الضوابط في نوعين من المعايير التي يجب مراعاتها:

النوع الأوَّل: هو المباني والأصول الموضوعة التي يجب أن يكون المفسّر قد فرغ منها قبل دخوله لعملية التفسير، ومن تلك الأصول:

١. وحيانية القرآن، وأنَّه صادر من الله تعالى العليم الحكيم الرحيم(٥٣)، وأنَّ لهذه الصفات الإلهية الكاملة مدخليةً في كيفية التعامل مع نصّ القرآن؛ إذ العلم والحكمة الإلهية تقتضي أن يكون القرآن كتاباً نازلاً على وفق صفات المتكلّم.

٢. مصونية القرآن من التحريف، وأنَّ متنه معبّر عن مراد المتكلم من دون زيادةٍ أو نقيصةٍ(٥٤).

٣. واقعية لغة القرآن، وأنَّ ألفاظه وجمله مقصودة للمتكلّم بمعناها الذي تدّل عليه وفق أصول المحاورات العقلائية، لا أنَّها ككتب الأسطورة(٥٥).

٤. عقلانية لغة القرآن، أيّ أنَّ القرآن نزل بأسلوب العقلاء وبلغتهم التي يعرفونها ويتعاملون بها فينقلون أفكارهم ويتلقّون أفكار الآخرين من خلالها، وعربيّته لا تضرّ بالأمر شيئاً؛ لأنَّه إن لم يكن عربياً لكان بلسانٍ آخر حتماً، فعربيته من مقتضيات نزوله إلى هذا العالم(٥٦).

ويتفرّع على هذا أنَّ الله تعالى استخدم في إيصال المعاني التي كان يريد إيصالها إلى البشر الأسلوب عينه الذي اتخذه العقلاء في تخاطبهم وتحاورهم. فالله سبحانه ألقى خطابه إلى الناس بالأسلوب عينه المستخدم عندهم وطلب منهم تفسير خطابه وفهمه وفق ذلك.

نعم هناك ضوابط ومعايير لفهم النصّ القرآني وهو ما سنشير له في المعيار الثاني.

٥. عدم تعارض المعنى القرآني الصحيح مع المعطى العقلي الصريح، وهذا معيار مهمّ في كيفية فهم القرآن واستخراج معانيه وعدم الانجرار خلف محاولات بعض المدارس المسيحية في التملّص عن جملة من معاني مدلولات بعض فقرات الكتاب المقدّس لتعارضها مع العلم والعقل ونزوعهم إلى معالجة ذلك بالتخلي عن قدسيّة كتابهم[٥٧].

النوع الثاني: وهو القواعد الخاصّة التي يجب مراعتها أثناء عملية التفسير لتجنّب الوقوع في الخطأ أثناء فهم الآيات القرآنية، ومن تلك الأصول:

١. التسلّط على علوم اللغة العربية وآدابها وقواعدها، وإلا فهل يمكن لمن لا يعرف اللغة العربية فهم القرآن الذي هو كلامٌ عربيٌّ مبينٌ؟![٥٨].

٢. الإطّلاع الوافي على قواعد الدلالة اللفظية، وكيفية استنتاج مرادات المتكلّم من ألفاظه التي نطق بها (من حيث النص والظاهر والمجمل)، وكيفية حمل إطلاقه على مقيداته وعموماته على خصوصاته، وهذا ما تكفّلت به بعض مباحث أصول الفقه[٥٩].

٣. مراعاة قواعد السياق والقرائن المتّصلة والمنفصلة والداخلية والخارجية، إذ إنَّ القرآن كالكلمة الواحدة في بيان مراداته ومعانيه المقصودة

من أوّله إلى آخره، وقد أوقعت الغفلة عن هذا الأصل في التفسير العديدَ من المفسّرين في مغالطات كثيرة إذ قاموا بتفسير جزءٍ من القرآن أو جزءٍ من الآية من دون ملاحظة آيات أخرى وقرائن تصرف المعنى عمّا ذهبوا له فوقعوا في تلك المغالطات والأخطاء[٦٠].

٤. مراعاة قواعد التفاهم العقلائي، حيث إنَّ القرآن نزل وفق هذه القواعد المتعارفة في الفهم والتفهيم، فإذ ما قال القرآن مثلاً: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ...﴾[٦١] في الحكاية عن ملكة سبأ فإنَّ أصول التفاهيم العرفي تقتضي تقييد إطلاقها؛ إذ لو أخذت على إطلاقها للزم أن يحتوي ملكها على كلّ ما هو شيء - مادياً كان أو غير مادي- وليس الأمر كذلك، بل إنَّها لم ترَ كثيراً ممَّا هو في عالمنا اليوم، من هنا يرشدنا المناخ الخطابي في هذه الآية إلى حَصر الدلالة بما كان من لوازم الحكم آنذاك خاصّةً، وليس المقصود من الآية عموم إطلاقها، ولا دليل على هذا التخصيص سوى الحصر الدلالي الناشئ من القدر المتيقن في مقام التخاطب، لا سيما وأنَّ الآية لم يسبقها أو يلحقها مخصصٌ ما[٦٢].

٥. الرجوع إلى كلام النبي صلى الله عليه وآله في تبيينه للآيات القرآنية، وهذا الأصل هو مما أرشدنا له القرآن في قوله ﴿... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ...﴾[٦٣] فالمعلّم ضروريٌّ لفهمٍ دقيقٍ لمرادات الله تعالى في كتابه، وأمّا دخول بقية المعصومين عليهم السلام في نطاق هذا الأمر فمرجعه إلى الأصول من النوع السابق وهو من المسلمات في مدرسة أهل البيت عليهم السلام[٦٤].

ملاحظة

إذا ما شكّكنا في مراد الآية واحتملنا عدّة معانٍ لها فعندئذٍ يصار لقواعد الترجيح العقلائي من خلال الأدلة والقرائن الداخلية والخارجية وإرجاع

النصّ المشكوك في معناه إلى مفادات الشرع العامّة والحاكمة على جزئياته، كما لو كان أحد تلك الاحتمالات مخالفاً للعقل أو للشرع مثلاً فإنَّه يُطرح ويُأخذ بالآخر؛ فإنَّ للدلالات العقلية دوراً مهمّاً في فهم مرادات الباري تعالى وأنَّ ذلك المراد لا يمكن أن يكون مخالفاً لمنطق العقل أبداً[٦٥].

وإذا ما دقّقنا النظر فيما تقدّم وجدنا أنَّ كلّ تلك الأصول والضوابط إنَّما هي أصولٌ عقليةٌ أو عقلائيةٌ - أو ترجع إليها- في فهم مراد المتكلّم، وهي مبتنيةٌ على القوانين والسياقات العقلائية في الفهم والتفهيم والتحاور والتخاطب.

الخاتمة والنتائج

يتّضح ممَّا ذكر أنَّ اعتقاد بعض "الهرمنيوطيقين" القائلين بأنَّ كون مراد المتكلّم معزولاً عن إرادته ودائرة حيطته، أو أنَّ المعنى يخرج من يدّ المتكلّم بمجرّد النطق بالكلام، أو أنَّ لكلام الماتن معاني لا تعدّ ولا تحصى يعرفها من يطالع كلامه بعد النطق به، أو أنَّ عملية الفهم لا تخضع لميزان وقواعد تنضبط بها وما شابه ذلك من ترّهات، إنَّما هو كلامٌ فارغٌ أو سرابٌ بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً؛ إذ إنَّ بين اللفظ والمعنى وصلةً وثيقةً، وأنَّ عملية الفهم - وإن كانت معقّدةً- إلَّا أنَّها خاضعةٌ لقوانين صارمةٍ لا تقبل التساهل، وأنَّ الألفاظ حرّاس للمعنى، نعم بشرط أن يكون المتكلّم عالماً بالوضع ومحيطاً بالمعنى وهو مسلّمٌ بالنسبة للقرآن.

وأخيراً نقول: إذا ما أراد الإنسان أن يكون دقيقاً في أداء معانيه وإيصال أفكاره إلى الآخرين فعليه الانضباط بقواعد اللغة ومعاني الألفاظ ومعايير الخطاب الصحيح، فيؤدّي المعاني بما يناسبها من ألفاظ، وإذا كان غير عالمٍ

بذلك ولا مطّلعاً عليه فعليه التعلّم.

ومن لطيف القول: أنَّ هناك في عالمنا المعاصر - وخصوصاً ممَّن ينتسب للثقافة والتنوير- أشخاصاً ليس لهم فهمٌ دقيقٌ ولا لغةٌ معبّرةٌ، وربَّما لم يدرسوا المنطق الذي يعطي دارسة قواعد النطق والتفكير الصحيح، وهم يكتبون ويخطبون مستخدمين ألفاظاً رنّانةً لا معنى لها، منمّقين ومزوّقين بتلك الألفاظ التي لا تؤدّي ما يريدون من معانٍ تدور في أذهانهم، ولعلهم متعمّدون في ذلك إمَّا لجهلهم بما يتطلّعون للكلام فيه أو لسهولة التملّص إذا ما أوقفهم أحدٌ وحاسبهم على ما يقولون وتعارض معانيهم مع معطيات العقل السليم والشرع القويم.

المصادر

١. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، انتشارات رضي، قم، إيران، ط١، ١٩٩١م.

٢. أعلام الفكر اللغوي التقليد الغربي من سقراط إلى سوسور، روي هاريس وتولبت جي تيلر، ترجمة: أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.

٣. انطولوجيا اللغة عند مارتن هايدجر، إبراهيم أحمد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٨م.

٤. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩١م.

٥. التأويل والهرمنوطيقا دراسات في آليات القراءة والتفسير، مجموعة باحثين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١١م.

٦. تفسير مفاتيح الغيب، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٠ق.

٧. التمهيد في علوم القرآن، محمد هادي معرفة، دفتر انشارات اسلامي، قم، إيران، ط بدون، تاريخ بدون.

٨. الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد، العلامة الحلي، تحقيق: محسن

بيدار فر، انتشارات بيدار، قم، إيران، ط٤، ١٤٣٠ق.
٩. خصائص اللغة العربية وطرائق تدريسها، نايف معروف، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط٥، ١٩٨٩م.
١٠. الخصائص، أبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٩م.
١١. دعوى بشرية القرآن، محمد الربيعي، مركز الهدف للدراسات، قم، إيران، ط١، ٢٠١١م.
١٢. زعماء الاصلاح في العصر الحديث، أحمد أمين، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط بدون، تاريخ بدون.
١٣. شرح المطالع في المنطق، قطب الدين الرازي، انتشارات ذوي القربى، قم، إيران، ط١، ١٤٣٣ق.
١٤. شرح حكمة الإشراق، قطب الدين الشيرازي، انجمن آثار ومفاخر فرهنكي، طهران، إيران، ط١، ١٣٨٣ش.
١٥. علم اللغة العام، فردينان دي سوسور، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، آفاق عربية، بغداد، العراق، ط من دون تاريخ.
١٦. علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار المعارف بمصر، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٦٢م.
١٧. علم اللغة، علي عبد الواحد وافي، مطبعة الاعتماد، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٤٤م.
١٨. الله والإنسان في القرآن علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، توشيهيكو ايزوتسو، ترجمة وتقديم: د. هلال محمد الجهاد، مركز دراسات الوحدة

العربية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٧م.
١٩. مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، طهران، ط٢، ١٩٩٣م.
٢٠. المقدمات والتنبيهات في شرح أصول الفقه، محمود قاصنو الشهابي العاملي، دار المؤرخ العربي، النجف، العراق، ط٢، ٢٠٠٩م.
٢١. مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٢م.
٢٢. منطق الخطاب القرآني دراسات في لغة القرآن، محمد باقر سعيدي روشن، ترجمة: رضا شمس الدين، نشر: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٦م.
٢٣. منطق تفسير القرآن (أصول وقواعد التفسير)، محمد علي رضائي اصفهاني، ترجمة: أحمد الأزرقي، وهاشم أبو خمسين، الناشر: مركز المصطفى صلى الله عليه وآله العالمي للترجمة والنشر، قم، إيران، ط١، ١٤٣٥ق.
٢٤. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، بيروت، لبنان مؤسسة الأعلمي، ط١، ١٩٩٧م.
٢٥. الهرمنوطيقا ومنطق فهم الدين، على الرباني الكلبايكاني، ترجمة: داخل الحمداني، مؤسسة أهل الحق، بغداد، العراق، ط١، ٢٠١٣م.

الهوامش

(١) انظر: شرح حكمة الإشراق، قطب الدين الشيرازي: ٢٩.

(٢) انظر: أبو الحسن النجفي، مباني زبان شناسي وكاربرد آن در زبان فارسي: ٢؛ كـذلك منطق الخطاب القرآني دراسات في لغة القرآن، سعيدي روشن: ٢٢.

(٣) انظر: الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد: ٢٤.

(٤) انظر للمثال على ذلك: كتاب المقدمات والتنبيهات في شرح أصول المظفر ١: ١٥٧.

(٥) انظر: العلاقة بين اللغة والفكر: ١٧.

(٦) يُنقل هذا القول عن هيجل. أنظر: اللغة، إعداد وترجمة عبد السلام بـن عبـد العـالي ومحمد سبيلا.

(٧) انظر: المنطق، المظفر: ٣٧، شرح المنظومة حسن زادة ١: ١٠١.

(٨) ومن الأمور المعقّدة والتي وقع الاختلاف حولها بين العلماء والباحثين إمكان أو عدم إمكان التفكير بدون لغة.

(٩) انظر: اللغة، إعداد وترجمة عبد السلام بن عبد العالي ومحمد سبيلا: ٧٦.

(١٠) الوجود في الكتابة يدل غالباً على وجوده في العبارة لا دائماً؛ إذ قد توجد كتابة مـن غـير تلفظ بعبارة، بل ينتقل الذهن منها إلى المعنى من غير ذكر مكتوب. انظر: الجوهر النضيد.

(١١) راجع شرح الإشارات ١: ٢٢.

(١٢) تفسير مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ١: ٨٩.

(١٣) شرح المطالع في المنطق ١: ١٠١.

(١٤) الخصائص، ابن جني ١: ٣٣.

(١٥) نقلاً عن انطولوجيا اللغة عند مارتن هايدغر: ٢١.

(١٦) انظر: خصائص اللغة العربية وطرائق تدريسها: ١٥.

(١٧) عالم لغوي سويسري ولد عام ١٨٥٧م، يُعدّ أشهر لغوي في العصر الحديث كما يعتبر الأب والمؤسّس لمدرسة البنيوية في اللسانيات في القرن العشرين، حيث اتجه بتفكيره نحو دراسة اللغات دراسة وصفية باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية بعد أن كانت اللغات تدرس دراسة تاريخية، والسبب في هذا التحوّل في دراسة اللغة هو اكتشاف اللغة السنسكريتية، كما كان أول من أعتبر اللسانيات كفرع من علم أشمل يدرس الإشارات الصوتية أقترح دي سوسير تسميته semiology ويعرف حاليا بالسيميوتيك أو علم الإشارات. وقد أصبح أستاذاً لعلم اللغة العام في عام ١٩٠٧م في جامعة جنيف حتى وفاته عام ١٩١٣م. للتفصيل انظر: أعلام الفكر اللغوي، ١: ٢٥٨؛ كذلك: علم اللغة العام، سوسور: ٣.

(١٨) نقلاً عن علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي: ٥١.

(١٩) انظر: علم اللغة، علي عبد الواحد وافي: ١٢-١٣.

(٢٠) التأويل والهرمنيوطيقا دراسات في آليات القراءة والتفسير، مجموعة باحثين: ٤٥.

(٢١) للتفصيل في معنى الهرمنيوطيقا وحدودها وأهدافها ومراحلها انظر كتاب: درآمدي بر هرمنوتيك (مدخل إلى الهرمنيوطيقا)، للدكتور أحمد واعظي.

(٢٢) ومن أبرز المنظّرين لهذا العلم الفيلسوف الألماني شلايرماخر (١٨٣٤م) والذي يعتبر مؤسس الهرمنيوطيقا الحديثة، ومارتن هايدغر (١٨٨٩-١٩٧٦م)، ورودولف بولتمان (١٨٨٤-١٩٧٦م)، وهانس جيورج غادامر (١٩٠٠-٢٠٠١م). كما أن من المنظّرين لعلم التفسير الحديث كل من: فوخس، وإبلنج.

(٢٣) انظر: التأويل والهرمنيوطيقا، المصدر السابق: ٤٦. ولكنا نعتقد - وكما مرّ قبل قليل - أن المعاني رهينة سطوة الكلمات، وأن الألفاظ حرّاس المعاني، فما يريد المتكلّم، يُلقيه بألفاظه إلى المخاطب، وما لا تحمله الألفاظ لا يقصده المتكلم، والأمانة بالنقل والانتقال على عهدة الألفاظ وقدرة المتكلم على اختيار الأنسب منها للدلالة على مراده، (على فرض معرفة المخاطب بلغة المتكلم).

(٢٤) انظر: المصدر السابق: ٤٧.

(٢٥) انظر: الهرمنوطيقا ومنطق فهم الدين، علي الرباني: ٢٦.

(٢٦) انظر: تحليل لغة القرآن وأسلوب فهمه، سعيدي روشن: ٤١.

(٢٧) انظر: تحليل لغة القرآن: ٤٠.

(٢٨) انظر: منطق تفسير القرآن: ١٣٧.

(٢٩) وانطلاقاً مما مرّ - من علاقة اللغة بالفكر، وأنه لا يكون (غالباً) إلا من خلالها- ربما أمكن إضافة (سهولة إدراك الحقائق والتعامل معها فكرياً) إلى وظائف اللغة، بل ستكون هذه الوظيفة من أهم وظائف اللغة حينئذٍ.

(٣٠) انظر: منطق تفسير القرآن، رضائي اصفهاني، ١: ١٣٨.

(٣١) انظر: علم اللغة، د. غازي مختار طليمات: ٢٨.

(٣٢) انظر في هذا الموضوع كتاب «الله والإنسان في القرآن علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم»، ايزوتسو: ٥٠-٦٨.

(٣٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١: ٢٩١؛ الميزان، الطباطبائي، ١٥: ٣١٧.

(٣٤) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، ١: ٤٤؛ البرهان في علوم القرآن، ١: ٢٩٠؛ مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار، الشهرستاني، ١: ٦٠؛ التمهيد في علوم القرآن، معرفة، ١: ٢١١.

(٣٥) انظر التفاسير في ذيل قوله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾. (القيامة: ١٦-١٧).

(٣٦) سورة التوبة، الآية: ٦.

(٣٧) انظر: التمهيد في علوم القرآن: ١: ٢١٠.

(٣٨) سورة الزخرف، الآية: ٤٣. سورة يوسف، الآية: ٢.

(٣٩) سورة يونس، الآية: ٣٨.

(٤٠) وللتفصيل في هذا الموضوع وأدلته يمكن مراجعة كتابنا «دعوى بشرية القرآن».

(٤١) انظر: منطق تفسير القرآن، رضائي اصفهاني، ١: ١٣٨؛ كذلك انظر: مناهل العرفان، ١: ٤٤.

(٤٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٤٣) القمي، عباس، مفاتيح الجنان، دعاء أبو حمزة الثمالي.

(٤٤) المصدر السابق، زيارة آل يس.

(٤٥) ربما يُشكل بأن: التمسك بالشواهد القرآنية لأجل فهم إمكان وعدم إمكان المعرفة الواقعية للعبارات القرآنية مستلزم للدور؟ إذ نحن في صدد إثبات واقعية اللغة القرآنية فكيف يمكن لنا الإحتكام إليها؟!. الجواب: إن بإمكاننا الرجوع إلى القرآن نفسه لإثبات واقعية لغته؛ ذلك لأن أحد الطرق لمعرفة أن الجملة لها واقع أم لا هو الرجوع لكلام المتكلّم نفسه وكشف الشواهد والقرائن الموجودة في كلامه، والتي تبيّن لنا قصد القائل من كلامه في إرادته الواقع من عدمه، كما أن أحد الطرق لكشف المعرفة الواقعية هو السؤال من الماتن نفسه. والتصديق بكلام الماتن والاطمئنان له متوقّف على صدقه طبعاً، وهو محروز فيما نحن بصدده؛ للأدلة المتواترة والمعاجز الكثيرة، فضلاً عن آيات التحدي بالقرآن. ويتّضح من هذا الجواب أن شرط قبول الأدلة والشواهد الداخلية في النصوص ليس هو قبول الإسلام واعتباره مسبقاً، بل المقصود هو حين ملاحظة المتن وعدم معرفة حكاية مطالبه عن الواقع أم لا.

(٤٦) وقد وردت هذه المفردة في القرآن في (٢٤٧) مورداً.

(٤٧) سورة فاطر، الآية: ٣١.

(٤٨) سورة آل عمران، الآية: ٦٢. وغيرها من الآيات القرآنية التي أشارت لهذه الحقيقة بمختلف التعابير والألفاظ.

(٤٩) سورة الصافات، الآية: ٣٧.

(٥٠) سورة الفرقان، الآية: ٤-٥.

(٥١) وللتفصيل في هذا الموضوع راجع كتاب «زبان دين وقرآن» (لغة الدين والقرآن): ٢٨٧، و«منطق تفسير القرآن»: ٣٦٤ - ٣٥٥.

(٥٢) لأن الكتب المقدّسة الأخرى في أحسن أحوالها هي كتب مكتوبة بأيدي بشر كانوا قد سمعوا الكلام والتعاليم الوحيانية من الأنبياءعليهم السلام وسطّروها بما كانوا يرون أنه مناسباً لها من كلمات وعبارات؛ ولذا فهي خاضعة لفهمهم وعلمهم وعباراتهم التي كانوا يعرفونها ويزاولونها في حياتهم العادية، وهذا بخلاف القرآن النازل من الله تبارك وتعالى.

(٥٣) انظر: منطق تفسير القرآن: ١٠٩.

(٥٤) انظر: المصدر السابق: ١١٠.

(٥٥) انظر: زبان دين وقرآن (لغة الدين والقرآن): ٢٨٧؛ منطق تفسير القرآن: ١٣٣.

(٥٦) انظر: تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه: ٤٧٢.

(٥٧) انظر: منطق تفسير القرآن: ٦١.

(٥٨) انظر: الهرمنوطيقا ومنطق فهم الدين: ٢٣١؛ منطق تفسير القرآن: ٢٧٤.

(٥٩) انظر: المصدر السابق: ٢٨٠؛ منطق تفسير القرآن: ٢١٩.

(٦٠) انظر: المصدر السابق: ٣٠٤؛ منطق تفسير القرآن: ٣٥٣.

(٦١) سورة النمل، الآية: ٢٣.

(٦٢) هذا من إفادات العلامة الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي.

(٦٣) سورة النحل، الآية: ٤٤.

(٦٤) انظر: منطق تفسير القرآن: ٤٢.

(٦٥) انظر: المصدر السابق: ٤١٧-٤٢١.